

كُنْط وَإِشْكَالِ الْمِيتافِزِيْقِيَا^(*)

«هايدغر»

مراجعة: د. سعاد حرب

يُندرج هذا الكتاب ضمن رؤية هايدغر لتاريخ الفلسفة، الذي يرى انه تاريخ السؤال حول «الكون» وماهيته. هذا السؤال الذي عمل على طرحه في مؤلفه الأساسي «الكون والزمان». وهذا السؤال هو الخيط الذي يقود هايدغر في دراسته لتاريخ الفلسفة الذي يختلف عنده عن تاريخ الفكر بوجه عام. ويهدف من دراسته هذه ليس الى ايجاد اشكال للتفكير أو للمضامين أو للشخصيات ولكن «على العكس لكي يصل بالضبط الى هذا البعد الوحيد... الذي يستطيع أن يكشف له التساؤل حول الكون مفهوماً هنا في أصالته»⁽¹⁾. هذه العودة إلى الماضي تتم «بالتهديم» والتهديم هو استملاك ايجابي وتحولي.

من هذا المنطلق نفهم التأويل الذي يعطيه هايدغر لـ «نقد العقل المحض» وهو مضمون كتاب «كُنْط وأشكال الميتافيزيقا».

يبدأ تأويل هايدغر بطرح ان ما يحاوله كُنْط في «نقد العقل المحض» هو تأسيس الميتافيزيقا. ويتساءل لماذا يأخذ هذا التأسيس عند كُنْط شكل «نقد العقل المحض». والجزء الأول من الكتاب هو محاولة للإجابة على هذا السؤال. وهو يبسطه بثلاثة أسئلة: 1 - ما هو مفهوم الميتافيزيقا الذي ورثه كُنْط؟ 2 - على ماذا يبنى أساس هذه الميتافيزيقا التقليدية؟ 3 - لماذا هذا التأسيس هو نقد للعقل المحض؟

في محاولته للإجابة على هذه الأسئلة يعطي هايدغر تعريف «ماو مغارتن» المدرسي للميتافيزيقا وهو: «إن الميتافيزيقا هي العلم الذي يتضمن أول الأسس لما يمكن أن يدرك بواسطة المعرفة الانسانية» (ص 66). ويبين

(*) Martin HEIDEGGER: Kant et le problème de la métaphysique Introduction et Traduction de l'Allemand par: Alphonse de WALHENS et Walter BIZMEL.

édit: Gallimard. TEL. 1953 (Traductions française)

(1) Revue de Morale et de Métaphysique. N. p. 21.

هايدغر الاشكالات التي يعرضها اسم «المتافيزيقا» منذ ارسطو، ويعمل على توضيح بعضها لما يمكن أن يفيد في فهم نقطة انطلاق اشكالية كنط الأساسية. ويعرّف هايدغر المتافيزيقا بأنها المعرفة الأساسية للكائن كما هو وبكليته، وينجم عن هذا التعريف الأسئلة التالية: ماذا تتضمن معرفة كون الكائن؟ وبأي مقدار تنبسط هذه المعرفة بالضرورة في معرفة الكائن بكليته؟ ولماذا تتوصل المعرفة الى أن تصير معرفة الكون؟ ويقول هايدغر انه بعد افلاطون وارسطو تم الابتعاد عن الاشكالات الرئيسية التي تركها هؤلاء، الأمر الذي أدى الى التعريف المدرسي الذي ذكرناه للمتافيزيقا. من جهة بدافع بالايمان المسيحي الذي ادى الى ما يسمى بالمتافيزيقا الخاصة بخلاف المتافيزيقا العامة (أي الانطولوجيا) التي تدرس الكائن بوجه عام؛ ومن جهة أخرى بدافع من نمط معرفة المتافيزيقا ومنهجها: «البعد عن التجربة والعقلانية اديا الى أن تكون دراسة الكائن علماً [مشيداً] بواسطة العقل المحض». ويقول هايدغر أن كنط قد بقي اميناً لنوايا المتافيزيقا الخاصة؛ وبما أن الفشل وانعدام التماسك والفعالية يلازمان كل محاولات المتافيزيقا، يجب أن تعلق كل الجهود التي تطمح الى تنمية المعرفة العقلانية حتى يحل اشكال الامكانية الجوانية لهذا العلم. وهكذا ولدت مهمة التأسيس بوصفها تحديداً لماهية المتافيزيقا.

ويعالج هايدغر كيف يرجع سؤال المتافيزيقا الخاصة الى طرح الامكانية الجوانية للانطولوجيا الى المتافيزيقا العامة، حيث تصبح الانطولوجيا وللمرة الأولى إشكالاً.

يتطلب تأسيس المتافيزيقا في كليته أن نكشف عن الإمكانية الداخلية للانطولوجيا. وانطلاقاً من هنا يعطي هايدغر تفسيراً ميتافيزيقياً «لثورة الكوبرنيكية» الكانطية: كانت الذات تخضع في معرفتها للموضوعات، وهذا ما كان يجعل أية معرفة قبلية بواسطة المفاهيم مستحيلة؛ ويعمل كنط على طرح المسألة بطريقة عكسية، الى ما اذا كان على الموضوعات أن تنبسط على معرفتنا وهذا ما يتوافق مع إمكانية معرفة قبلية، ويفسر هايدغر ذلك بأن الثورة الكوبرنيكية التي قام بها كنط تدور حول التوافق الضروري للمعرفة الكينية مع الحقيقة الانطولوجية.

وإذا كان تأسيس المتافيزيقا التقليدية يتمهد في السؤال حول الامكان الداخلي للانطولوجيا، لماذا يأخذ هذا التأسيس شكل نقد للعقل المحض؟ يوضح هايدغر كيف أن إشكال إمكان الانطولوجيا يرجع عند كنط الى السؤال: كيف تكون الأحكام القبلية ممكنة؟ هذه الأحكام التي تقدم لنا «la talité de l'étant»^(*). قبل اية تجربة. و«العقل المحض» هو ملكتنا للمعرفة وفق مبادئ قبلية، والمعرفة القبلية لإمكان المعرفة الانطولوجية يجب أن تكون توضيحاً لماهية «العقل المحض»، أي ان «ننقد» امكانياته الأساسية، وهكذا فإن تأسيس المتافيزيقا، ككشف لماهية الانطولوجيا هو «نقد للعقل المحض». إن المعرفة الأنطولوجية، أي «التوليف» القبلي، هي سبب كل «النقد»، ولكن ما معنى «التوليف»؟ إن هذه الكلمة تأخذ عدة معان، ولكن «التوليف» القبلي، هو نمط من التوليف يجب أن يقدم، بخصوص الكائن، شيئاً ما لا تستطيع التجربة أن تخرجه منه. وهو يشكل الاتجاه أو الأفق الذي يستطيع فيه الكائن أن يقع تحت تجربة التوليف التجريبي. وكل فحص متعلق بهذا التوليف (القبلي) يسميه كنط ترسندال. أي الذي لا يهتم بتفحص الكائن نفسه ولكن بإمكان الفهم المسبق للكون. اذن التساؤل حول

(*) وضع المترجم الفرنسي لفظ talité بإزاء اللفظ الالمانى Wassen، والذي يمكن تأديته بـإنية حسب اصطلاح ابن سينا، فنقول: التي تقدم لنا إنية الكائن قبل أي تجربة (م. و).

امكان الانطولوجيا يعني التساؤل حول ماهية هذا الترندال. و«نقد العقل المحض» هو «بحث في المنهج» أي أنه تحديد كامل «للعقل بعامة» و«لكامل التمثيل الداخلي للانطولوجيا». وهنا يبرز موقف هايدغر من «النقد»: إن كمنظ لا يبذل الميتافيزيقا بـ «نظرية في المعرفة» ولكنه يتساءل حول الامكان الجواني للانطولوجيا.

ويعد أن بين هايدغر في الجزء الأول نقطة انطلاق المشكلة الكنتية لتأسيس الميتافيزيقا، يعتمد في الجزء الثاني الى بسط هذا التأسيس وينقسم الجزء الثاني الى قسمين. يحدد أولهما البعد الذي تدور فيه الحركة الكنتية لتأسيس هذه الميتافيزيقا، والثاني يطرح مراحل تطور مشروع الامكان الجواني للانطولوجيا.

يهدف القسم الأول الى تحديد ماهية المعرفة الانطولوجية في اصلها، وللتوصل الى ذلك لا بد من توضيح ماهية المعرفة بشكل عام، أي مكان وطبيعة دائرتها الأصلية.

لا يعني كمنظ بدراسة موضوعانية للمميزات الجوهرية لمجال الأصل، إذ انه يقبلها على أنها «افتراضات بديهية»: العقل المحض هو أساس بناء الميتافيزيقا، وتناهي هو جوهري بالنسبة لمشكلة التأسيس. يجب إذن تحديد ماهية هذا التناهي. من أجل ذلك لا بد من تحديد ماهية المعرفة. أن نعرف عند كمنظ هو أولاً أن نحسد، ويكون التفكير في خدمة الحسد، المعرفة هي حسد مفكر؛ والتصور هو اللفظ الجنسي للثنين: الحسد والتفكير. ولا يقصد كمنظ هنا الحسد الإلهي الذي يخلق موضوعه والذي لا يحتاج التفكير، ولكن الحسد الانساني المتناهي. وتعريف كمنظ لا ينطبق على المعرفة بوجه عام ولكن على المعرفة الانسانية فقط.

ما هي ماهية الحسد المتناهي وبالتالي ماهية تناهي المعرفة الانسانية بوجه عام؟ إن الحسد المتناهي غير خلاق، وعليه أن ينطبق على موضوع معطى مسبقاً؛ أي انه حسد متلق. ويفترض هذا أن يؤثر الموضوع بطريقة ما في فكرنا. والحساسية (ما يتأثر بالموضوع) هو نتيجة لتناهي الحسد وليس العكس. وموضوع الحسد لا يكون كائناً الا اذا استطاع كل واحد أن يجعله مستوعباً منه واذا استطاع أن يتواصله والآخرين. ولكي بصير الحسد المتناهي معرفة يجب أن يحدد موضوع الحسد بكذا وكذا. . . أي أن يتصور الموضوع من قبل الحسد بما لديه «من عام»، ولكن ذلك لا يتم الا لكي يهدف الى المقرد والى تحديده. والفعل المحدد للتصور يبدو كتصور (افهوم) للتصور (الحسد) وملكة الحكم هنا هي الفاهمة. إن طريقة التصور الخاصة بالفاهمة تجعل الحسد «قابلاً للفهم». وبذلك فإن توليف التفكير مع الحسد يتم تمظهر الكائن الذي يلتقيه الحسد؛ وهذا التوليف هو توليف تحقيقي. وتخضع الفاهمة لتناهي الحسد، وما يلصق به هذا التناهي كونه لا يملك المباشرة التي يتمتع بها الحسد، وكون تصوره يلتصق بـ (المنطق). ومساهمة الفاهمة هي في الطريقة التي يأخذ فيها المضمون الواقعي (الموضوع الحسد) قيمة الوحدة التي تشمل افراد كثر.

ويعد أن يعرض هايدغر لتناهي المعرفة من جهة الحسد المتناهي والفاهمة (من وجهة الذات) يعرض لهذه المعرفة المتناهي من وجهة ما يمكن أن تعرفه أي من وجهة الموضوع: إن المعرفة المتناهي هي حسد متلق، وموضوع المعرفة يجب أن يقدم نفسه، والمعرفة المتناهي تقدم لنا كائناً يتمظهر، أي ظاهرة. والظاهرة هي الكائن عينه كموضوع للمعرفة المتناهي. بينما في المعرفة اللامتناهي يكون الكائن في ذاته، كون الحسد اللامتناهي هو الذي يخلقه. إن التمييز بالنسبة الى «نقد العقل المحض» بين الشيء في ذاته والشيء كظاهرة ليس موضوعياً، لأنها الشيء عينه؛ وهذا التمييز هو ذاتي. الشيء في ذاته ليس موضوعاً آخر ولكنه علاقة أخرى للتصور بخصوص

الموضوع عينه. و«كل ما يتمظهر في الظاهرة هو ظاهرة». ويستحيل على المعرفة المتناهية أن تعرف الشيء في ذاته كخلق. «الشيء في ذاته» و«الظاهرة» يفهان من خلال تاهي الكون الانساني ومعرفته المتناهية، إذ انها الشيء عينه منظوراً إليه من خلال امكانية معرفته.

فلنا إن المعرفة الانسانية المتناهية تنتج عن التوليف بين الحدس والفاهمة مع اسبقية الحدس. وهما المصدران الوحيدان للمعرفة المتناهية. على أن كلاً لوحده لا يعطي معرفة، وهما ليسا متجاورين إذ ثمة وحدة جوهرية بينهما تفترضها المعرفة المتناهية. وحدة تفرضها بنية كل منها. إذ يعتبر كل من الحدس والفاهمة كأرومتين تنحرفان من جذر مشترك. ويقول كنتز في مقدمة وخالصة «نقد العقل المحض» إن هذا الجذر المشترك مجهول منا. ويعلق هايدغر على ذلك: «إن التأسيس الكنتزي للميتافيزيقا لا يقود الى الجلاء المطلق والواضح لفرضية أولى أو لمبدأ أول ولكنه يتجه ويرجعنا بوعي نحو المجهول. إنه تأسيس فلسفي للميتافيزيقا» (ص. 99/98).

والقسم الثاني يطرح حول ما هي الامكانية الداخلية للتوليف القبلي؟ وهو توليف تحقيقي محض. يمر توضيح ذلك بخمس مراحل: 1- العناصر الأساسية للمعرفة المحضة. 2- الوحدة الأساسية للمعرفة المحضة. 3- الامكانية الداخلية للوحدة الجوهرية للتوليف الانطولوجي. 4- أساس الإمكان الداخلي للتوليف الأنطولوجي 5- التحديد الكامل لماهية المعرفة الانطولوجية.

وهذا المجال ينكشف في «الذهن» الانساني. والمنهج الذي يتبعه كنتز، يقول هايدغر، رغم تركه هذا المنهج غير محدد، هو تحليلي يجعل من العقل نفسه يكشف ما ينتجه كلياً بنفسه.

يتابع هايدغر في تفصيله لهذه المراحل الخمس شرح كنتز، ويبين لنا طريقته في تأويله لكنتز: انه لا يتوقف عند مواقف كنتز وصيغته المقترحة بل يدفعها الى ما وراء القول الظاهر.

العناصر التي تتألف منها المعرفة التوليفية القبليّة: يتضمن التوليف الترسندي أ - حدس محض قبلي. ب - (ملكة) تفكير محض.

أ - إن الحدس المحض يتعلق بالكون وليس بالكائن، وهو حدس «خلاق» بمعنى ما، لأن ما يحدسه لا يمكن أن يكون معطى مسبقاً رغم كونه متلقياً. والحدسان المحضان بالنسبة لكنتز هما الزمان والمكان. إن حدس المكان هو تصور مفرد مباشر، وهو واحد ووحيد، وما نلتمسه في الحدس المحض يتقدم الينا كعيان مسبق دون أن يتوصل الى شكل موضوع، انه يحمل على الكلية الوحيدة التي تجعل كل العلاقات المكانية ممكنة. إنه غير ذي موضوع ولكنه ليس لا شيء على الاطلاق. والمكان يشكل الحدس الخارجي.

أما الزمان فهو «صورة الحدس الداخلي»، أي حدس التالي المحض، حدس ذواتنا وحالتنا الداخلية. وبين الحدسين يعطي كنتز الأفضلية للزمان: الشرط القبلي لكل الظواهر بوجه عام. وخلال مراحل التأسيس سيأخذ الزمان أهمية مركزية في تفسير هايدغر. وبعد أن يناقش (هايدغر) الزمانية الخارجية غير المباشرة مع الزمانية الداخلية، يقرر أن الزمان يكون كونياً كلما كان أكثر ترسخاً في الذات من المكان. وكلما كان الزمان أكثر ذاتية كانت الذات أكثر قدرة على الخروج أصلياً وفي العمق من حدودها الخاصة.

ويبين هايدغر أهمية الاستطيقا الترسندية في فهم هدف التأسيس، إنها ليست حالة خاصة، لكن يجب

الحفاظ عليها وتوضيح الأسئلة التي تطرحها. مبيناً أهمية الحدس في المعرفة الانطولوجية.

ب - رغم رفضه عزل العناصر الضروري في لحظة ما، يتابع هايدغر شرحه للعنصر الثاني في المعرفة المتناهية، التفكير المحض، وهو في خدمة الحدس. وهو ما يحدد موضوع الحدس بكذا وكذا في «تصور عام» أي في أفهوم. والمعرفة المحضة هي حدس محض بواسطة أفاهيم محضة. والتصور الأفهومي هو طريقة تجعل عدة كائنات تتطابق وفقاً لعنصر مماثل. وهذا العنصر يجب أن يميز مسبقاً ما يتصور، بكونه يشكل الوحدة الضامة: الأفهوم ومضمون الوحدة يتأق من الحدس. أما فيما يتعلق بالأفاهيم المحضة، فإن مضمونها يجب أن يكون قلياً، ويسمىها كمنظ المقولات. كيف توجد هذه المضمين إذا كان الفهم متصل بالحدس؟ إن ذلك لا يمكن أن يكمن إلا في الفعل الأساسي للفهم مأخوذاً كما هو. ومضمين هذه الأفاهيم هي تصورات ملازمة للبنية الماهوية للتفكير. وهي تعمل في ومع ومن أجل التفكير. وهي أفاهيم تفكيرية. إذ إن الفاهمة تتضمن أفاهيم محضة، وتشرح ملكة الفهم يجب أن يوضح هذه التصورات.

للأفاهيم المحضة طابع المحمولات الانطولوجية التي تسمى «مقولات». ولقد قدم كمنظ لائحة للأحكام اعترت مصدراً لهذه المقولات، ويناقش هايدغر الانتقادات التي وجهت إلى هذه اللائحة. خاصة في اعتبارها أصلاً للمقولات ويقول إن الأفاهيم المحضة (المقولات) ليست سوى جزء من العنصر الثاني للمعرفة المحضة، لأن هذا العنصر لا يعرف إلا من خلال اللحظة الأساسية من ماهيته وهي العلاقة مع الحدس. وطالما لا ينظر إلى الفاهمة من خلال هذه العلاقة فإن كل معرفة تكون ناقصة. وتبدو هنا أهمية المرحلة الثانية من التأسيس وهي الوحدة الماهوية للمعرفة المحضة.

إن تناهي المعرفة الانسانية يفترض علاقة بين عنصري هذه المعرفة، الزمان والمقولات، وحدة لا تكون لاحقة بل سابقة لكي تخدمها كأساس. وهذه الوحدة الأصلية تسمى «توليفاً». ويوجد عدة أنواع من التوليف، ويتعلق الأمر هنا بالتوليف التحقيقي. وسؤال الوحدة الماهوية للمعرفة الانطولوجية يتعلق بالتوليف التحقيقي المحض: الحدس المحض هو حدس موحد «تأطيري» والتفكير المحض: توليفي، ويصبح سؤال الوحدة الماهوية: كيف يظهر التوليف الأصلي (التحقيقي) للتأخير المحض وتوليف المحمول (التفكير المحض). ويمتلك هذا التوليف العنصر الأساسي المشترك للعنصرين أي انه فعل تصور. وهذا التوليف هو من فعل المخيلة، التي تقوم بالدور الوسيط بين الحدس والفهم. هناك إذن ثلاثة عناصر للمعرفة المحضة: الحدس، التوليف (المخيلة) والفاهمة؛ المخيلة هي الوسيط. وهذه الوحدة هي متعددة النشاطات ولا يمكن أن تكون الخلاصة التي يتوصل إليها، ولكنها يجب أن تكون نقطة الانطلاق في تأسيس هذه المعرفة؛ وماهيتها لا تستطيع أن تظهر (لكونها نشاطاً) إلا في انبجاسها نفسه. ومن هذه الوحدة علينا أن نحدد ماهية المقولة.

يظهر هايدغر كيف أن التوليف المحض ليس إشكالاً لا للمنطق الترندالي ولا للاستطبيقا الترندالية. مع اثار كمنظ «لتحليل الافاهيم» أي للمنطق ويبرر الأفضلية المعطاة للمنطق، بكون التفكير أساسياً في التحليل ويكون الميتافيزيقا الغربية ارتبطت باللوغوس والعقلي.

يتابع هايدغر المرحلة الثالثة وهي تعالج الامكان الجواني للوحدة الماهوية للتوليف الأنطولوجي، فيقول:

إن الحدس والفكر المحضين يجب أن يلتقيا قبلياً في التوليف المحض. وبذلك يصبح السؤال ماذا يجب أن يكون التوليف المحض، وما هي طريقته لكي يستطيع أن يستجيب لدواعي هذه الوحدة، وهذا ما يحاول أن يبيّنه التسويغ* الترسدالي للمقولات. ويوضح هايدغر هدف التسويغ* الترسدالي للمقولات بالنسبة إلى الإشكال الأساسي في تأسيس الميتافيزيقا: لا يستطيع كين متناه عارف أن يعرف كائناً إلا إذا كان هذا الكائن يقدم نفسه، وأن يكون لهذا الكون أفق انفتاح وتوسع: يسمح بالتقاء الكائن. وهذا المجال يسمى ترسدال. يؤدي ذلك إلى أن يظهر التوليف المحض كمن ينظم ويحمل الكلية الموحدة للبنية الماهوية والجوانية للترسدال. وتوضيح التوليف المحض يسمح عندئذٍ بكشف الماهية الحميمية لتناهي العقل. وبعد أن يوضح دور الفاهمة في تكوين المفارقة يطرح السؤال: ما هو الشرط الضروري ليكون تلقي الكائن ممكناً؟ ويبين هايدغر هذه الشروط (تقديم الكائن نفسه، التلقي، التموضع). ويظهر أهمية المفهوم في فصل التموضع وبالتالي دور الفاهمة التي تعرف بملكية القواعد. والتفوق الذي تحرزه الفاهمة هنا على الحدس التجريبي ليس إلا نتيجة كونها تابعة للحدس ودليلاً على تناهيه. على أن الحدس والتفكير المحضين يبرزان تناهيهما في توليفهما المحض الذي يكشف عن كون العقل المتناهي مفارقاً، ويكون قصد التسويغ الترسدالي توضيح ذلك. لأنه يهدف إلى تفصل البنية الكلية للتوليف المحض، ويوضح هايدغر طريقة عمله في تأويله هذا لـ «تسويغ أفاهيم الفاهمة المحضة» وكيف تنتظم الفاهمة المحضة مع الحدس المحض قبلياً.

للبرهان على ذلك يشرح هايدغر السيلين اللذين يؤديان إلى إظهار هذه الوحدة بين الحدس والفاهمة المحضين. ينطلق السيل الأول من الفاهمة المحضة، وتوضيح ماهيتها يظهر انتظامها الحميم مع الزمان. السيل الثاني يبدأ من الحدس مترقياً نحو الفاهمة بإظهار الوحدة التي يلعبها التوليف المحض كوسيط. ويظهر السيلان أن الحدس والفاهمة والحدس يجب أن يكونا مترابطين بنسبياً، أي أن بنية كل منهما تستدعي الآخر عبر التوليف المحض. وبعد أن يبرهن على ذلك، يبين هايدغر إلى أن كنه التسويغ* بالمفهوم الحقوقي وليس الفلسفي (التسويغ في مقابل الحدس). ويشدد على أن السؤال حول إشكال إمكانية الميتافيزيقا يأخذ شكل تسويغ حقوقي، ويعرف هذا الأخير على أنه برهان الشروط المطلوبة لحيازة حق.

ولما كان من الشائع أن يعتبر الرأي العام أن التسويغ الترسدالي هو النقطة المركزية الإيجابية في «نقد العقل المحض» فإن هايدغر يتابع عودته نحو الأصل، نحو أساس إمكان الوحدة الماهوية للمعرفة الانطولوجية في مرحلة رابعة، والتي سيظهر أنها الأساسية بالنسبة لهايدغر: إن دور التفكير المنطقي في الأشكال الميتافيزيقية قد جعل دور الفاهمة وبالأحرى علاقتها بالمخيلة المحضة كمرکز وسيط في المعرفة الانطولوجية تحت مركز الصدارة. على أننا قد رأينا أن كل معرفة هي أولاً حدس؛ وإذا كان الحدس المتناهي يتميز بتلقيه، فإنه من المناسب أن نوضح علاقة الحدس بالمخيلة الترسدالية وفي علاقته مع الفاهمة، وهذه المهمة تفرض أيضاً أن نقدم المخيلة الترسدالية بوظيفتها الموحدة. أي أن نفرض تكوين المخيلة وأفقها. وهذا ما يعالجه «النقد» في فصل: «ترسيم الأفاهيم المحضة للفاهمة»، ويقدم كنه لإشكال الحدس بطريقة خارجية رابطاً إياه بإمكانية إدراج الظواهرات تحت المقولات؛ وبالتالي بعملية التطابق بين الظواهرات والأفاهيم. وعلى الكون المتناهي أن يتلقى الكائن المعطى مسبقاً، ويوضح هايدغر

(*) في الأصل: الاستنتاج (م. و.).

كيف تتم العلاقة بين الحدس المباشر المحض والمخيلة المحضة والأفاهيم المحضة في تعيين الأفق الذي يتم فيه هذا اللقاء. تبني المخيلة المحضة العيان المحض المميز للأفق، ويسمح بعد ذلك باللقاء الكائن، يجب أن يكون قد تم نقل حسي للأفاهيم المحضة بواسطة المخيلة التي تبني الرسم، مقدمة بذلك مسبقاً العيان للأفق الترسدالي. إن النقل الحسي هو الطريقة التي يستطيع فيها كون متناه أن يجعل موضوعاً ما محدوساً.

ويعمل هايدغر على تبين الفرق بين الصورة والرسم، ويعرف المعاني التي يستعمل فيها كمنظور الصورة، ويخلص إلى أن الصورة هي عيان يُظهر كيف أن شيئاً ما يظهر وفقاً للعنصر الذي يماثل، ويكون مقبولاً بكثرة. أي أن الصورة توحد. وهذا ما يقوم به الأفهوم. الصور توفر النقل الحسي للأفهوم، الذي لا يمكن أن يوضح في صورة. ويوضح كيف تجعل الصورة النقل الحسي للأفهوم ممكناً؛ يكون الأفهوم يتحول إلى قاعدة ضابطة، ويعرف النقل الحسي الترسدالي الذي يظهر كثبت للقاعدة التي هي مصدر الصورة؛ حيث تندرج القاعدة في العيان الذي يمكن من تظهيرها. وهو خلق حر ترسدالي للصورة غير المرتبطة في كائن معطى. يتم هذا النقل الحسي في المخيلة. وجلب صورة للأفهوم هو ما يسميه رسم هذا الأفهوم. وهذه العملية هي ترسيم. ويميز كمنظور بين الرسم والصورة - الرسم تمييز يوضح علاقة الأفهوم بالصورة.

ما هي العلاقة بين العيان الذي يقدمه الكائن المتصور مباشرة وما يتصوره في المفهوم من هذا الكائن؟ وفي أي معنى يكون العيان صورة للأفهوم؟ يجيب كمنظور على هذه الأسئلة من خلال أفاهيم حسية تجريبية (أفهوم الكلب) وأفاهيم حسية محضة كالرياضيات (أفهوم المثلث). ويعمل بعد ذلك على توضيح الترسيم الترسدالي وذلك بالبرهان على أن النقل الحسي المحض والضروري للفاهمة المحضة ولفاهيمها (المعاني) يتم كترسيم ترسدالي. ولقد أظهر التسويغ الترسدالي أن الأفاهيم المحضة متعلقة ماهوياً بالحدس المحض: الزمان، بواسطة التوليف المحض للمخيلة الترسدالية. والزمان كما يقول كمنظور: «الصورة المحضة... لكل مواضيع الحس بوجه عام» (أي العيان المحض). ويبرهن هايدغر أن ترسيم الأفاهيم المحضة للفاهمة يجب أن يدرج هذه في الزمان بصفتها قواعد. إن إنجاز الترسيم هو: «الاستخدام القبلي للأفاهيم المحضة كتحددات ترسدالية للزمان. أي تكوين معرفة محضة» ويفسر كمنظور الترسيم مستنداً إلى «الاندراج»؛ جاعلاً بذلك من الترسيم المحض للأفاهيم المحضة سؤالاً حول ماهية الجوانب للمعرفة الانطولوجية. ويعتبر هايدغر هذا الفصل مرحلة حاسمة في تأسيس الميتافيزيقا العامة. والرسم الترسدالي (الذهني من ناحية والحسي من ناحية أخرى) هو الوسيط بين الأفاهيم المحضة المتباينة مع الظاهرات (الموضوع الذي تنطبق عليه هذه الأفاهيم).

ويتنقل هايدغر إلى المرحلة الخامسة وهي التحديد الكلي لماهية المعرفة الانطولوجية. بعد أن بين في المرحلة السابقة أساس الإمكان الجواني للتوليف الانطولوجي وبالتالي هدف هذا التأسيس، يوضح أن المرحلة الخامسة لا تهدف إلا لتملك هذا الهدف بشكل واضح بالنسبة إلى التأسيس الممكن للميتافيزيقا. أي المبدأ التوليفي الأعلى كتحديد للماهية الكلية للمفارقة. أي لكامل ماهية المعرفة الانطولوجية. حيث يركز هذا السؤال في «إمكان التجربة». الذي يعني: ما يجعل ممكناً التجربة المتناهية. وهي ما يعطي قبلياً واقعاً موضوعياً لكل معارفنا. وهي مماثلة للمفارقة. وفعل التوجه نحو... هو شرط لإمكان هذه التجربة؛ وهناك شرط آخر وهو التوافق مع الموضوع، وهذان الشرطان يحددان ماهية المفارقة. ويحدد كمنظور «إمكان التجربة» كالتالي: «إن شروط إمكان

التجربة بوجه عام هي نفسها شروط إمكان مواضيع التجربة». وهذا يعني أن الفعل الذي بتوجهه يجعل الموضوع ينبس ويشكل، كما هو، أفق الموضوع بوجه عام. وهذا يعني أن المفارقة تجعل الكائن نفسه قابلاً لكن متناه.

والمعرفة الانطولوجية تخلق تلقائياً العيان والترسندال، هل يعني ذلك أنها خلاقة كالحدس اللامتناهي؟ ابدأ، ويجيب هايدغر إن المعرفة الانطولوجية لا تخلق الكائن. ولكن على ماذا تحمل اذن؟ وما هو المعروف في هذه المعرفة؟ إن تصورات المعرفة تحمل على موضوع، والظواهر فقط هي التي تعطي مباشرة. وهذه الظواهر لديها موضوعها، وهذا الموضوع يسميه كمنظ المفارق س، وهو موضوع غير تجريبي. وما يسمح بتلقي الظواهر هو توجه متلق يجب أن يكون لديه موضوعه س. هذا الموضوع لا نستطيع أن نعرف عنه شيئاً، وهو عدم؛ بمعنى انه ليس كائناً ولكنه «شيء ما» إنه أفق يجعل الكائن ممكناً المعرفة.

ويوافق هايدغر على أن المعرفة الأنطولوجية تصير كسفاً لماهية المفارقة، بشرط أن تعني الأنطولوجيا الميتافيزيقا التقليدية. أما إذا فهمت على أنها البنية الماهوية والضرورية للتناهي فإننا نستعملها في معناها الحقيقي. ويقول إن كمنظ قد استعملها في هذا المعنى وبحق، وهكذا فإن أساس الميتافيزيقا التقليدية قد اهتز ومعه الميتافيزيقا الخاصة. ويترك هايدغر هذه الأسئلة معلقة بانتظار تمثل أفضل للوحدة التي أدركها كمنظ وذلك بوصل الاستطيقا مع المنطق الترسدالي.

يتعلق الجزء الثالث في التأكيد على أصالة البناء الكانطي معقداً على أساس هذا البناء نفسه وهو يصف في القسم الأول وبوضوح الأساس الذي حصل عليه هذا البناء: وهو المخيلة الترسدالية، التي يصفها بأنها ملكة من ملكات النفس، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بالانترولوجيا التي تعلمنا حول الأساس المعد للميتافيزيقا. والمخيلة الترسدالية هي الأساس الذي يبنى عليه الامكان الجواني للمعرفة الانطولوجية. وهي تتميز «بالتلقائية وبالتلقي» أي أنها تنتمي الى الفاهمة والى الحدس. على أن هايدغر يبين خطأ الانطلاق من الانترولوجيا الكنطية في دراسة دور المخيلة أصلياً، كون هذه الانترولوجيا هي تجريبية. فالتسويغ الترسدالي والترسيم يبينان بشكل أكثر أصالة دور المخيلة كملكة أساسية للنفس الانسانية تخدم قليلاً كأساس لكل المعرفة الانسانية؛ ويبينان إمكان الوحدة لهذه العناصر الثلاثة للمعرفة (الحدس والمخيلة والفاهمة). ومع أن كمنظ يتكلم على ثلاث ملكات للنفس الانسانية فإنه يقول أيضاً، إنه خارج ارومي الحدس والفاهمة لا تملك أي معرفة: هل هناك تناقض بين هذين القولين، أم أنه يمكن التوفيق بينهما؟

لقد بين تأويل التأسيس ان المخيلة هي الملكة الخاصة الموحدة بين الحدس والفاهمة؛ وتقيم علاقات بنوية ماهوية مع الاثنين. ويجعل هايدغر من المخيلة الجذر المشترك بين الحدس والفاهمة موقفاً بذلك بين قولي كمنظ. إن اظهار المخيلة الترسدالية كجذر مشترك لا يعني أن الحدس والتفكير المحضيين هما مجرد نتاج للمخيلة. إذ يظهر الكشف أن هذه الأخيرة لا تتوصل الى أن «تنخيل» الا بالوحدة البنوية للملكتين الاولتين. إن كشف المفارقة فقط هو ما يسمح في أن نقرر بأي معنى يكون ممكناً أن نتكلم عن «النفس» و«الذهن»، وفي أي معيار تحمل هذه المفاهيم أصلياً على الماهية الانطولوجية والميتافيزيقية للانسان. والنكوص نحو المخيلة الترسدالية يعني أن نتفحص تكوين المفارقة بالنسبة الى امكانياتها كما اظهرها إشكال التأسيس. وتمكن وظيفة الجذر من فهم أصالة التوليف

المحض، وتجعله مفهوماً بصفته أصلاً ومصدراً. ويتم ذلك باظهار علاقة المخيلة الترسندالية مع الحدس المحض وعلاقتها مع التفكير النظري.

يعيد هايدغر البرهان على تجذر الحدس المحض في المخيلة الترسندالية مبيناً أن الوحدة التي يظهرها الحدس المحض تنتج عن المخيلة وانها تختلف عن وحدة الافهوم، ويتقد شرح مدرسة ماربورغ التي تحيل الاستطبيقا الترسندالية الى المنطق والتي ترجع وحدة الحدس الى وحدة الافهوم، موضحاً أن الأساس الذي تعتمد عليه لا يقوم خاصة أن وحدة الافهوم ترجع أيضاً الى المخيلة.

ويوضح هايدغر أن أصل الفهم هو أيضاً في المخيلة. وبعد أن يدحض الاعتراضات على ذلك، يستخدم لبرهانه ما كشفه التأسيس، وهو أن الفهم يستخدم الرسوم والترسيمات التي تنتج عن المخيلة، وهذه الترسيمات تكون الكون الأصلي للفاهمة. ويبين هايدغر أيضاً الطابع الخيالي للتفكير من خلال تحديد الوعي المحض للذات؛ ويظهر أيضاً هذه العلاقة مع المخيلة من خلال حرية التصورات التي يمارسها التفكير المحض. وإذا كانت المخيلة الترسندالية تلقائية (كما الفاهمة). وإذا كان الحدى المحض متلقياً فإنه أيضاً يظهر بعض التلقائية وكذلك الفاهمة المحضة أيضاً يجب أن تملك طابعاً متلقياً محضاً. وهذا ما اظهره التسويغ الترسندالي والترسيم ويبين هايدغر أن الفاهمة المحضة، أي العقل النظري المحض يحتوي مسبقاً على الحرية كونه تلقائية متلقية محضة أي كونه مخيلة ترسندالية، ويعرف الحرية بأن تخضع لضرورة فرضناها بأنفسنا. وأكثر فأكثر مع تقليص الحدس والفاهمة المحضين الى مخيلة ترسندالية، ويعرف الحرية بأن نخضع لضرورة فرضناها بأنفسنا. وأكثر فأكثر مع تقليص الحدس والفاهمة المحضين الى مخيلة ترسندالية نرى أن المخيلة الترسندالية تظهر كامكان بنيوي للمفارقة، أي ما يجعل المفارقة ممكنة. وفي مناقشته في خطوة أخيرة لأصالة هذا الأساس يبين هايدغر كيف يجد العقل العملي عند كنت بوصفه احتراماً للقانون، وخضوع الذات (أي تلقياً محضاً) للقانون الذي تفرضه على نفسها بحرية وتلقائية، أصله في المخيلة الترسندالية.

لقد بين التأويل أن المخيلة الترسندالية هي أساس ماهوي لماهية المفارقة، وهي ما سبّاه كنت بالجذر المشترك المجهول؛ والذي تخلى كنت عن التنقيب حوله. ويقارن هايدغر بين الطبعتين الأولى والثانية للنقد، حيث يتخلى كنت في الطبعة الثانية عن المخيلة الترسندالية لصالح الفاهمة المحضة. ويجعل التوليف الترسندالي من وظائف ملكة الفاهمة. ويبين أسباب ذلك ومنها أن كنت فعل ذلك ليعي على اسبقية العقل؛ خاصة وان بحثه في الفلسفة الأخلاقية يعتمد على تحليلات انطولوجية ماهوية وأصلية تستطيع وحدها أن تدعم ميتافيزيقا الأخلاق؛ وبما أن ذاتية الذات تكمن في الشخصية أي في العقل الأخلاقي فإن عقلانية المعرفة يجب أن تتأكد وأن يبحث عن التناهي في الكائن العقلاني نفسه وليس في الحساسة. ويقول هايدغر أن تحليله لتأسيس الميتافيزيقا يعتمد على الطبعة الأولى. أما لماذا أخذ تناهي المعرفة الانسانية هذه الأهمية في بناء الميتافيزيقا فذلك لأن الميتافيزيقا تنتمي الى طبيعة الانسان، والتناهي من الطبيعة الانسانية، ويبين هايدغر أن البحث في تأويل المخيلة الترسندالية يبقى غير مكتمل اذا لم يجب عن السؤال المنبثق من الطبعتين: هل تقدم المخيلة الترسندالية أساساً صلباً للماهية المتناهية لذاتية الذات الانسانية أم على العكس يطرح أشكال العقل المتناهي بشكل أفضل اذا القيت المخيلة الترسندالية؟

يعالج هايدغر في احدي الفقرات المخيلة الترسندالية وأشكال العقل المحض الانساني. وبعد أن يبرهن على

أن «نقد العقل المحض» كتأسيس للميتافيزيقا يعالج العقل المحض الانساني فقط، يتساءل حول إمكان المخيلة الترندالية (التي رأينا أهميتها في التأسيس) في أن تجعل ممكناً ملكة من غط العقل الحسي المحض. إن الـ «أنا أفكر» يلازم كل ابصار والحس المحض هو الزمان، ويهدف هايدغر الى ايضاح علاقة الزمان مع الـ «أنا أفكر» الذي يتأسس على المخيلة الترندالية وبالتالي علاقة المخيلة الترندالية مع الزمان.

لقد تبين فيما سبق أن الزمان (كحدس محض) ينبجس من المخيلة الترندالية. ويشرح هايدغر كيف يتأسس الزمان على المخيلة الترندالية. وأن فعل التلقي للحدس المحض يجب أن يعطي لنفسه «عيان» الان الذي يكون تارة قادمة وتارة قد مر. ولقد اعطى كمنط للمخيلة طريقة ثلاثية في تشكيل التصورات التي تكون متعلقة إما بالحاضر أو بالماضي أو بالمستقبل، أي إن تكوين الصورة في المخيلة هو متعلق بالزمان. فالمخيلة بالتالي تشكل الزمان (كتتابع) ولكن أيضاً الزمان الأصلي، الذي ليس اطلاقاً تالياً للآنات. إن الزمان الأصلي هو المخيلة الترندالية، ويعمل هايدغر على برهان ذلك مستنداً الى تعريف المخيلة كملكة «للتوليف بوجه عام» توليف ينقسم الى ثلاثة أنواع يتبع الزمان (الماضي، الحاضر، المستقبل) (مع افضلية معطاة للمستقبل). وهذا البرهان (المخيلة الترندالية لديها طابع زمني جواني) هو الدليل الحاسم والقاطع بأن المخيلة الترندالية هي جذر ضروري لأرومتي الحدس والفاهمة. وهكذا يكون الزمان في داخل أساس المفارقة. ويقول كمنط إن الزمان هو «لا شيء خارج الذات». ويشرح انطلاقاً من ذاتية الزمان، زمانية الذات، موضحاً الحدس كتصور يسبق كل فعل مفكر، والذهن كتأثير بذاته قبل أن يتفكر أي شيء أمامه، والزمان كتأثير محض بنفسه. من هذه المعطيات يشرح كمنط كيف أن ذاتية الذات هي زمانية، وإن الزمان كأساس لامكانية الهدية يوجد في الأبصار المحض ويسمح للذهن بأن يكون ما هو. ويبرهن بالتالي تماثل الزمان والـ «أنا أفكر». الـ «أنا أفكر» والزمان (الأصلي) لديهما المحمولات عينها: انها دائمان وثابتان، أي أن الأنا والزمان المحض ليسا داخل الزمان (كتتالي). وبينه هايدغر الى أن هاتين الصفتين مفارقتان. أي أنه بينما الـ «أنا أفكر» (يتصور) فإنه يقترح نفسه كدوام، وبصفته أنا فإنه يشكل ما يلازم الجوهر بوجه عام. وهذا يرجع الى أن تقول إن الـ أنا بتشكيله اصلياً للزمان (الأصلي) يشكل طبيعة التموضع وأفقته. ويخلص هايدغر الى أن الحساسية المحضة (الزمان) والعقل المحض ليسا فقط متجانسين ولكنها ينتميان معاً الى وحدة الماهية عينها، تلك التي تجعل تناهي الذاتية الانسانية الكاملة ممكنة.

ويقرر هايدغر بعد ذلك تفضيله للطبعة الأولى من «نقد العقل المحض» مقارنة بين الطبعتين، وموضحاً أنه على الرغم من أن الطبعة الثانية تجعل التوليف من وظائف الفاهمة فإنها تقرر أيضاً أن المقولات لا تستطيع أن تتموضع إلا مع حدس محض داخلي وخارجي (الزمان والمكان، وبأن المكان يندرج في الزمان الأصلي). ويبين هايدغر طريقته في تأويل كمنط وذلك باعتداده ليس على ما يقوله كمنط صراحة ولكن ما قصد ان يقوله مستنداً في هذه الطريقة على قول كمنط نفسه أو جاعلاً منها طريقة في فهم المعرفة الفلسفية. ويلخص في النهاية الفكرة التي قادته في تفسيره وما آل اليه هذا التفسير وهو: إن البناء الكنطي لأساس الميتافيزيقا قد قاد الى المخيلة الترندالية. وهي الجذر المشترك للحساسية وللهم، وهي التي تجعل الوحدة الأصلية للتوليف الأنطولوجي ممكناً (أي التساؤل حول كون الكائن) وهذا الجذر هو بنفسه ينغرس في الزمان الأصلي. أي أن تأسيس الميتافيزيقا يتأسس على الزمان. ويبيّن أن السؤال حول «الكون والزمان» هو إشكال مؤلفه الأساسي «الكون والزمان» وهذه الفكرة التي وضحتها في

تفسير «نقد العقل المحض» هي رسم أولي لإشكال الانطولوجيا الأساسي.

ينتهي تفحص تأسيس الميتافيزيقا الكنتية بكشف المخيلة كأساس وكوحدة بين الحدس والفاهمة، على أن هايدغر يضيف جزءاً رابعاً الى تفسيره لـ «نقد العقل المحض» يسميه إعادة تأسيس الميتافيزيقا. وهذه إعادة لا تنفي النتيجة التي وصل إليها التأويل ولكنها تبحث فيما تحفيه أيضاً من امكانيات؛ حسبما يبين هايدغر معنى «إعادة». ماذا كان بإمكان النقد أن يقدم غير اكتشاف المخيلة وبالتالي الزمان الأصلي كأساس للميتافيزيقا؟ لقد ظهر أن البناء هو كشف لذاتية الذات الانسانية. أي أنه تساؤل حول الانسان وبالتالي انتربولوجيا. ويتساءل هايدغر هل أن «نقد العقل المحض» هو محاولة لبناء انتربولوجيا فلسفية؟ بعد أن قدم النقد بأصالة أكثر من الانتربولوجيا مصدرية المعرفة الانسانية! وقبل أن يمضي في محاولته للإجابة على السؤال المطروح أعلاه يوضح هايدغر فكرة الانتربولوجية الفلسفية ويظهر عدم التحديد الذي يخالف هذه الفكرة وكذلك دورها في الفلسفة، ويقول إن كون كمنط يرجع الاسئلة الفلسفية الثلاثة: 1- ماذا يمكن أن أعرف 2- ماذا يمكن أن أفعل 3- ما يسمح لي بأن أمل؟ الى سؤال رابع ما هو الانسان؟ لا يكفي لتقرير أن «نقد العقل المحض» يركن الى انتربولوجية فلسفية. مبرهن أن مهما كانت المعارف التي تقدمها الانتربولوجية الفلسفية حول الانسان فإنها لا تستطيع أن تدعي بأنها ميدان أساسي في الفلسفة لسبب كونها انتربولوجية. وعلى العكس فإنها تخاطر دائماً بأن تخفي أهمية البسط في شكل إشكال السؤال حول الانسان وربط هذا الإشكال ببناء الفلسفة بوجه عام.

يرهن هايدغر كيف أن سؤال الفلسفة الأولى ما هو الكائن؟ يتحول الى سؤال ما هو الكون الذي تظهر علاقته الجوهرية مع تناهي الإنسان. والكون يشبه العدم كما يقول هيغل، ولا يمكن تحديده، على أن للإنسان قدرة على تفهم الكون، هذه القدرة التي تجعل كائناً ينبس لكون في نفسه. ويرهن هايدغر على أن تفهم الكون هو الأكثر تناهياً في التناهي أي في الانسان. وعلى أساس تفهم الكون تظهر العلاقة بين إشكال التأسيس والتناهي الانساني. وبذلك يرهن هايدغر على أن السؤال الكنتي لا يكون انتربولوجياً بل هو سؤال وجودي. وبالتالي فإن «نقد العقل المحض» ليس «نظرية في المعرفة» بل هو ميتافيزيقا للميتافيزيقا كما يقول كمنط نفسه.

والنتيجة الحقيقية للنقد تكمن في اكتشاف الصلة الداخلية التي تصل إشكال إمكان التوليف الانطولوجي بكشف التناهي في الانسان. والكيفية التي تتحقق فيها ميتافيزيقا الكين في العالم هي الانطولوجيا الأساسية. ويوضح هايدغر هذه الأنطولوجيا انطلاقاً من الكين معتمداً على تحليله للكين - في - العالم وتاريخيته، وعلى تفهم الكون الذي يقود التحليل الوجودي، ويؤدي إلى اظهار «القلق» كالمكون الأساسي والترسدي للكون - في - العالم، وان السؤال حول الكون يدور في أفق الزمان.

ويقرر أنه مع البناء الكنتي لأساس الميتافيزيقا الذي وضع وللمرة الأولى سؤال الامكان الجواني لمتظهر كون الكائن، كان يجب على كمنط أن يلتقي الزمان كتحديد للمفارقة المتناهية اذا كان صحيحاً أن تفهم الكون في الكون، في العالم يسقط تلقائياً الكون نحو الزمان. ويعتبر هايدغر أن «نقد العقل المحض» قد هز تفوق العقل والفاهمة، وأن أفهوم المنطق قد وضع موضع السؤال. ولكن الم تبين الطبقة الثانية أهمية الفاهمة؟ والتي ستدفع الفلسفة بعد ذلك! يعتبر هايدغر أن الدور والأهمية التي أخذها المنطق بعد كمنط، يُعتبر نسياناً لما قدمه كمنط وهو أن الإمكان الجواني وضرورة الميتافيزيقا يجب أن يحملا ويحفظا في بسط وتعميق إشكال التناهي.

بعض أهم المصطلحات الواردة في النص مع عديلها الفرنسي

problème	إشكال
Concept	أفهوم
transcendance	= مفارقة
Transcendental	ترسندالي
représentation	تصور
pensée	تفكير/ تفكير
receptivité	تلقي
finitude	تناهي
synthèse	توليف
vue	عيان
étant	كائن
être	كون
ontique	كيني
notion	معنى
Catégorie	مقولة